

ورع ارملة

الياس اقراب

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته
بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء
كانت إلكترونية أو ورقية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو
خلاف ذلك إلا بموافقة خطية من المؤلف مقدّما



تناهت أصوات النواقيس ترتفع ببطء ويتداخل بعضها البعض في سمفونية عتيقة تذكر المؤمنين بأوقات ذكر أو صلاة... فتحت عينيها وتمططت بالفراش وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال فوق سرير رُفِع عن الأرض بأعمدة نحاسية عتيقة ارتفعت إلى أن قاربت السقف وشكلت قبة انسدلت عليها حجب شفافة فوقها ستائر تظلل النائم فوق السرير، ما إن يغلقها حتى يصير منعزلاً عن باقي الغرفة... السرير يتوسط الحائط حوله منضدتان من خشب الأبنوس المنقوش.. على الجانب المقابل صوان يقابله مكتب بين نافذتين طويلتين تفضيان لشرفة... للغرفة، المغلفة بورق مورد، تصميم القصور أو لعله قصر... قامت بتثاقل من مكانها.. رفعت ستائر السرير ثم توجهت لإحدى النافذتين جرت عنها الستارة... لاحت أضواء المدينة تلمع منافسة النجوم التي بدأت بالظهور على صفحة السماء... من بعيد تراءت قبة عظيمة البناء بديعة الصنع تتلألأ حولها الأضواء وتشع كهالة... المدينة-الدولة المقدسة تنبسط أمامها... التل العتيق الذي تهوى إليه أفئدة المؤمنين بالخلاص... أسدلت الستار من جديد وجلست فوق كرسي المكتب تتأمل في فراشها.. سرير غير مرتب تحيط بجوانبه ستائر مخملية حمراء.. ذكرها المشهد بلوحة معينة صادفتها قبل أيام في زيارتها لمتحف بحاضرة التلال السبع... دارت بجسدها نحو المكتب وأشعلت حاسبها الفضي تبحث بين بعض الصور الملتقطة إلى أن وجدت اللوحة المنشودة.. ثلاث أشخاص باللوحة.. ثلاث ملامح.. ثلاث مصائر... طالعت السرير بأغظيته البيضاء الغير مرتبة وستائره الحمراء المرفوعة كأنها ستائر تعلن بداية مسرحية إلا أنها مسرحية تراجيدية دموية... فوق السرير رجل يظهر جذعه العاري... صدر مرسوم وأذرع قوية صلبة هي لرجل فحل يحق له أن يفتخر بفحولته... لكن هذا الجذع الصلب الرجولي متصل، عن طريق رقبة، برأس لها لحية غير مشدبة كشعر الرأس الواضح بعضه.. هذه الرأس على وشك الانفصال عن جسدها... وجه جزع هو من يخبر هذه المأساة... فم مفتوح على وشك طلب الصفح أو على وشك طلب النجدة... ملامح تغضنت كأنها شاخت في لحظة ارتسم كل خط منها بجهة وحفر مكانه كخندق جف عنه الماء... عينان جزعتان تملكها الخوف.. تملكتهما الصدمة.. تملكتهما الدهشة... ارتفع بؤبؤهما يستجديان... ملامح مفزوعة لوجه رأى الموت.. ملامح مندهشة لوجه رأى الموت بغتة... ملامح مصدومة لوجه رأى الموت على يد امرأة... هذه المرأة تمسك بسيف يحز رقبة الرجل... امرأة امتزج جمالها بهالة من القوة تحيط بها... على ملامحها الشابة الفضول والاشمئزاز في نفس الوقت... يدان ثابتتان.. إحداهما تمسك الشعر والأخر تحز العنق بالسيف اللامع... عنق انفجرت منه الدماء وتطايرت على شراشف السرير الناصعة البياض... على



جانب المرأة عجوز انحنى ظهرها... تحمل ثوبا وعلى أهبة الاستعداد لتلقي هذه الرأس بعد سقوطها.. في نظراتها الشر.. الاستمتاع والحقد باد على محياها الكثير التعرجات... كأنها.. مسرورة لهذا الحدث وتنتظر اكتماله على يد حاملة السيف المنهمكة في عملها

كادت تسمع خوار حنجرة الرجل والروح تغادرها... تراءت لها أقدامه وهي في النزاع الأخير تصارع بكل ما بقي فيها من قوة... ضربات قلبه المرتفعة والمتسارعة فالضعيفة والقليلة ثم فالصامته... أحست بيد المرأة الباردة تحز الرقبة كقطعة لحم... سمعت همسات العجوز وتنفسها المضطرب... عاشت في اللوحة ومضت بها ذاكرتها المنهكة إلى الماضي.. إلى ماض لو... أخبرت شخصا أنها عاشته لاتهمها بالخبل والجنون

يا شعب الرب.. يا أيها الأبناء البررة... أيها القاطنون بجوار الهيكل... يا من يعيشون " بالجبال... اسمعوا لكلامي وانقلوه لأهاليكم... إن جيوش البابلي الظالم قادمة.. بعد أن رفضتهم مشاركته في حربه ضد ملك فارس فما هو قام عليكم.. لقد بعث جنودا لا قبل لنا بهم وعتادا لا نملك ربه... بكل إقليم حلوا خرج رؤسائه يطلبون السلام والعفو ليتجاوز عنهم ملك البلاد.. حيثما حل الجنود يهدون إليهم الأبقار والأغنام.. بكل مكان وضعوا فيه أقدامهم فإن آلهة البلاد تتهشم ويعلو صنم واحد هو صنم الملك البابلي الذي أعلن نفسه إلها فوق الأرض وأراد منافسة الرب المبارك إلهنا... يا شعب الرب فروا إلى الجبال وحصنوا مدنكم وقراكم... اجمعوا حنطتكم وادفنوا مدخراتكم إن طبول الحرب ستقرع... يا من كتب عليهم الشتات والتموا أخيرا ببلاد الرب بلاد آبائكم فروا للحصون ورابطوا بالطرقات حتى نستعد". للغاشم إذا ما حل علينا.. الرب إلهنا لن يتركنا

انتشر كلام الرجل الراكب على فرس كالنار في الهشيم وسرى بين النبلاء والرعا... الكل أجفل... يتذكرون قبل سنين حينما بعث ملك بابل في طلب العون منهم ومن جيرانهم حتى يتغلب على عدو له... تذكروا كيف طردوا رسوله واستهزأوا به... ارتعدت فرائضهم وهم يسمعون كم من الحصون دمرت... خشوا على أنفسهم ويلات حرب لن يقدروا عليها كما لم يقدر عليهم جيرانهم ممن خرجوا طالبين الصفح ورافعين رايات الاستسلام مفضلين عبادة إله جديد وهم أحياء على الموت وهم يدينون بدين آبائهم... ولولت النساء واستعد الرجال لملاقاة العدو بعد أن جاءت رسالة من كاهن الرب تأمرهم بالاستعداد كما أمرهم بالصوم والابتهاال للرب... لبس الكهنة والورعون المسوح كما سجد أمام مذبح الرب الأطفال خاضعين متذللين... صرخ الشعب جملة للرب بألا يتخلى عنهم ولا يجعلهم عبيدا للوثني.. ألا تسبي



نساؤهم وألا يذبح أطفالهم.. حثوا الرماد على رؤوسهم وارتفع دخان قرابين الرب... كلهم قلب... واحد لعل الرب يفتقد شعبه

على مقربة من بلاد يهوذا، انتصبت خيام الجنود وكثر لغطهم بالوادي... بالخيمة المركزية، كان القائد اليفانا يمشي ويجيء يزفر نفسا حارا بعد أن سمع أن شعب بني إسرائيل تآهب للمقاومة والمدافعة عن أرضه وإلهه بأن سدوا منافذ الجبال. نادى القواد والرؤساء ممن أذعنوا له واستسلموا

" من يكون هذا الشعب الذي سولت له نفسه أن يقاومني؟ من يكونون؟ ما مدنهم؟ ما قوتهم وعتادهم؟ كيف استخفوا بنا من دون كل ساكني أرض المشرق "ولم يخرجوا لطلب الصفح ورفع رايات الاستسلام؟

:سأل وهو يستشيط غضبا... قام شيخ من رؤساء الأقوام المهزومة وقال

أ يأذن لي القائد بالكلام؟" استرسل بعدها دون أن يتلقى جوابا، هامت عيناه كأنما تريان " الجبال خلف ثوب الخيمة الحريري: "الحق أقول لك وأخبرك بما سمعت عن أسلافي وما رأيت بعيني.. إن هؤلاء القوم الساكنين بالجبال هم من نسل الكلدانيين إن حياتهم ملحمة وأيامهم تستحق أن تنشد على مدى الدهور... استقروا بادئ ذي بدء ما بين النهرين بعد أن رفضوا واستغنوا على آلهة الكلد أسلافهم... احتقروا آلهة أسلافهم ورغبوا عن عبادتها ليسجدوا لإله واحد في السماء فنفوا أنفسهم لكنعان ولما عم القحط والجوع أمرهم إلههم بالنزول إلى بلاد آمون... مصر.. أربع قرون تكاثرت فيها نسلهم وتضاعف عقبهم بأرض النيل حتى صار من الصعب إحصاؤهم إلا أن جاء فرعون من الفراعنة فاستعبدتهم وقسم ظهورهم بالأشغال الشاقة كما كسر عزتهم بالاحتقار والصخرة.. بنوا معابد من لبن وطين... صرخ هذا الشعب إلى ربه وبكى الصبية والعجائز حتى سمع ربهم بكاءهم وأنزل الضربات على مصر وأهلها... سلط عليهم إله إسرائيل لعنات لا قبل لأمون ورع بها فخاف المصريون وسرحوا شعب الرب ليتخلصوا من لعنات إلههم الذي لا يرى.. مضوا حتى وصلوا للبحر الأحمر وبذراع قوية ويد ممدودة قسم ربهم البحر قسمين ومشوا وسطه كأنه طريق معبدة... إلههم إله معجزات وقوى... عبروا البحر دون دراية أن شعب المصريين يتعقبهم لينتقم... عندما رأى شعب إسرائيل غبار مركباتهم وشرارات أعينهم ولولت النساء وتضرع الرجال... هكذا سمع الرب بكاء شعبه من جديد فأطبق البحر على أبناء إيزيس وأنهى نسلهم ليجعلهم عبرة وليشكره شعبه جيلا بعد جيل ويحكوا قصة خروجهم من مصر لأبنائهم.. بسيناء من عليهم



إلههم فرزقهم أكلا من السماء وفجر لهم عيوناً كثيرة ترويههم... حيثما دخلوا يهللون باسم إلههم فهم فاتحون دون قوس أو سيف... لم يتخلى ربهم عنهم إلا حين تخلوا عنه.. والحق يقال إنهم أظهروا الجحود أمام كرمه وأبانوا عن الكفر أمام عطفه... في كل مرة يتكرون إلههم فهو يسلمهم لعدالة الأرض ويجعل الشعوب تستضعفهم وتكسر شوكتهم فيعودون نحوه كأبناء يشتكون لوالدهم... وفي كل مرة كان ينقدهم.. إلههم يبغض الآثام والذنوب، يحب المتدللين من شعبه لذلك فهو يختبرهم في كل حين ليعودوا نحوه كلما قل بخور قرايبنهم وخرست ألسنتهم عن التهليل باسمه... لقد حذوا عن طريق ربهم من سنين لكنهم الآن وقد استقاموا فقد لم شملهم ووجد كلمتهم بمعبدته في مدينة النور حيث يقيمون أقداس الرب ويضحون باسمه... إن كان لهذا الشعب إثم وخطيئة مع ربهم فلنصعد ونحاربهم لأننا سننتصر ونستعبدهم، لكن إن لم يكن لهم إثم أمام إلههم فلا قبل لنا بمحاربة إله أطبق البحر". على المصريين... سنكون عارا بين الأمم

فرغ العجوز من كلامه وبدل أن يجد الآذان الصاغية فقد التفتت ليرى الغضب يتطاير من عيني اليفانا: " كيف لنا أن نخاف من شعب لا يدري أمور الحرب ولا يعلم تدبيرها... أقسم لألون الجبال بدمائهم وأجعل جثتهم منتشرة على السهول"
ارتفعت الأصوات مؤيدة

لكلام القائد وعزموا على مقاتلة بني إسرائيل

أيها العجوز إنما أنت تخدعنا بكلامك الكثير وعبارتك المسمومة.. سترى أن شعب إسرائيل " يركع تحت قدمي الإله الوحيد والأوحد في الأرض وفي السماء ملك الآشوريين العظيم.. سنسيقك لهؤلاء الذين دافعت عنهم لتبقى معهم وحين ندخل فاتحين منتصرين ستهلك بسيفي لتعلم أنني أنا القائد اليفانا وتخر ساقطا بين موتي إسرائيل الذين مجدتهم ومدحت "إلههم أمانا

أمر اليفانا عبده فوثقوا العجوز وساقوه إلى حتفه مصفر الوجه مرتعد الفرائض... ساروا به في... الصحراء إلى أن وصلوا الجبال فانحازوا وربطوه بشجرة ثم عادوا

نزل أحد الحراس بالجبل ففك وثاقه وساقه لحبرهم الذي أقامه في وسط الشعب ليخبرهم ما وقع... حكى العجوز وحكى فخر الشعب ساجدا متضرعا لإلههم " إننا متدللون فراعنا... انظريا إلهنا وإله آبائنا لعتوهم و انظر لتذللنا... لا تغفل عنا بحرمة القديسين و ارحمنا برحمتك يا من نجى آباءنا من استعباد فرعون... إنا متوكلون عليك و هم متوكلون على أنفسهم فلا تدرنا



ونحن الضعفاء" صلى الشعب و بكوا وتضرعوا لربهم في حين كان اليفانا يزحف بعسكره مقتربا من الجبال... جاء وقد أعد العدة والعتاد.. جنود قدموا من أركان الأرض تكاد الشمس تختفي خلفهم.. أقدامهم حركت صخور الجبال وأصواتهم مزقت الصمت... كلهم متأهبين لمقاتلة شعب الرب الذي اختار إليها واحدا بدل مئات الآلهة... من مدينتهم رأى بنو إسرائيل الجنود وقد أحاطوا بالجبال من كل أركانها.. خروا على الأرض من جديد وحثوا الرماد على رؤوسهم مبتهلين متضرعين متذللين لعل الرب يشفق من حالهم... ويحدث أمرا... قام كل منهم وحمل سلاحه ثم رابضوا بمضايق الجبال حارسين ليل نهار

مضى اليفانا يتطلع ويستكشف الفجاج والمضايق فوجد عين ماء لا تنضب تروي أهل المدينة المتحصنة بالجبال فقطعها وترك بعض الجنود يحرسونها... لما عاد وجد بعضا من القواد الذي أعلنوا له الطاعة والخضوع فشاروا عليه مشورة جعلت ابتسامة المكر ترتسم على وجهه.. " أيها القائد العظيم إن هذا الشعب لن يستسلم بسهولة ولا قبل لهم بالحرب فهو ليسوا بشعب محارب.. إن الجبال تحصنهم والسهول تصعب الدخول لمدينتهم... لتظفر بهم فاقطع كل العيون والينابيع التي منها يستقون.. أذلهم بالعطش ونحن سنرسل بعضا من جنودنا على رؤوس الجبال ليمنعوا كل رجل من المرور حتى لا يجلب مؤونة لأهله فإما ..يهلكون جوعا وعطشا وإما يسلمون المدينة ويسجدون للملك الإله

بعد عشرين يوما من قطع المياه على المدينة، جفت الينابيع وتشققت حيطان الآبار، فرغت الأحواض وبدأ العطش يستولي على الناس بعد أن صاروا يسقون بمقدار محدد... هلك من الصبيان عدد ومن بقي انهار على الطرقات لا يقدر على الوقوف من شدة الضعف.. حينها اجتمع القوم على حبرهم ولاموه بعد أن كانوا يؤيدوه وعزوا ضعفهم إلى قلة حيلته وعدم تبصره " يحكم الرب بيننا وبينكم لو أنك رضيت بأن تسلم المدينة لما وقعنا في هذا الشر... لأن نسبح للرب ونحن أحياء خير من ملاقاته منكسرين والعار يجلل رؤوسنا بعد أن نشاهد نساءنا تُستحيى وأبناءنا تذبح... باعنا الله إلى أيدي الآشوريين.. يا ويلنا ويا قرحنا.. سلم المدينة ..للعدو ولا تتركنا نهلك بالعطش فخير لنا السيف

أظلمت الدنيا في أعينهم واقشعرت أبدانهم... رثت النساء ومن رثوهم أحياء وبكى الرجال أقاربهم وهم بينهم وقوف... عم الحزن وارتفعت الأكف من جديد تتضرع وتبكي... " نحن مخطئون يا رب إبراهيم... عاقبنا ولا تسلمنا للعدو... رضينا بعقابك لكن لا تجعلنا ذليلين ..لغيرك.. لا تسلمنا نحن من نعبدك لشعب لا يعرفك لكيلا يستهزؤوا بنا ويسألونا أين إلهكم



فاضت دموع الحبر وبكى معهم ثم عزايم بأن قال لهم: " قوموا يا إخوتي وكفوا عن السوڤاوية
لننتظر هذه الأيام الخمسة لعل الرب يكف غضبه ويمجد اسمه.. فإذا انقضت الأيام ولم
يحدث شيء سلمنا المدينة وأنفسنا

قال كلامه وفرق الرجال بين حراس على طول سور المدينة أو على أبراجها في حين مضت
..النساء والأطفال لحال سبيلهم.. غرقت المدينة في الصمت الحزين الذليل

من بين النساء العائدات لبيوتهن كانت أرملة اسمها يهوديت... أرملة منذ ثلاث سنين
ونصف.. هلك زوجها ودُفِنَ بالمدينة المحصنة بعد أن قتله الحر أيام الحصاد... منذ وفاة
بعها وهي تصوم أيام السنة ما عدا تلك المقدسة.. نذرت نفسها للرب ولم تزل المسوح من
تحت ثياب الحزن التي لم تزلها... زادتها مسحة التقوى جمالا وثياب الحزن إغراء.. جمالها
يقارن بجمال العذارى وهي الأرملة التي ترك لها زوجها ما يغنيها عن باقي الناس طيلة عمرها،
فلها من الخدم والحشم ما يماثله من الماشية التي ترعى كلاً أراضيها الخصبة... رغم جمالها
الأخاذ وعيشها دون ذكر تستند عليه فإن أحدا لم يشر لها بسوء أبدا لأنها امرأة صلاح وتقوى
صارمة لا تقبل المزاح... لما سمعت كلام الحبر مضت لبيتها إلا أنها عادت من منتصف
الطريق و سارت نحو شيخين من شيوخ المدينة وجدتهما مع الحبر...

" اسمعوني يا حكماء المدينة، إن الكلام الذي نطق به الحبر اليوم ليس بالصائب ولا
بالمقبول.. كيف لكم أن تحددوا أجلا محددًا لرحمة الرب بنا... أوتختبرون الرب؟ ... إن
كلامكم إنما هو جالب للسخط وليس الرحمة... أو تضعون الإله ندا لكم حتى تحاولوا فهم
مقاصده وتضربون موعدًا لرحمته.. إن لم تكن نحن البشر المخلوقات الآثمة نستطيع معرفة
دواخل أنفس بشر مثلنا.. لا نعرف إلا ما يطلعوننا به ولا سبيل لقراءة مكنونات أنفسهم ولا
استكشاف دواخلها كيف لنا أن نجعل الرب، خالق البشر، في هذه المنزلة ونخمن ما يريد بل
ونختبره ونضرب موعدًا لرحمته... غضب الرب ليس كغضب الإنسان ولا استطاعة لنا بمعرفة
تدبيره وحكمته.. فصلوا للرب واتقوا شره الذي سيجلبه كلامكم هذا.. صلوا بتواضع فحتى لو
لم يمد لنا الرب العون خلال هذه الأيام الخمس فهو بقادر على جعلنا صامدين أيامًا أكثر
وقادر كذلك على تسليمنا للعدو في أي وقت أراد... لنصل خاشعين باكين كما اضطربت قلوبنا
بتكبرهم.. إن عاقب الرب آباءنا فيما مضى فلإنهم تركوه ومضوا عنه لعبادة آلهة مزيفة أما
نحن فلم نعرف ربا غيره وبهذا سنسلم من سيف العدو... ابتهلوا للرب القادر على الانتقام



لشعبه وسفك دماء عدوه.. إننا نحن أبناء المدينة المحصنة إن استسلمنا فكل بلاد إسرائيل ستنتهار ومعبد الرب في أورشليم سيخربه الوثنيون.. إن سلمنا أنفسنا فأثام شعبنا ستثقل رقابنا وحتى لو كتب لنا العيش فالعار هو ما سيرافقنا أبد الدهر.. أيها الشيوخ إنكم صوت الرب في الشعب فعزوهم وذكروهم بابتلاءات الآباء الأوائل.. أخبروهم أن من صبر لاختبار الرب فهو مبارك ومن لم يقبل الابتلاء كان الهلاك نصيبه... إن الرب لا يعذبنا بل هو اختبار منه لنا "فاصبروا على الاختبار.. اصبروا تنالوا وإلا فالويل لشعب الرب من غضبه

كان صوت يهوديت صارما جافا واعظا مرشدا فتقواها شددت عضدها وإيمانها أزرها ووهب كلماتها هيبة نزلت كالسكينة على شيوخ المدينة فباركها الحبر وقال " لا عيب في كلامتك يا بنية والحق كله معك.. صلي من أجلنا أيتها القديسة... صلي من أجل الشعب لعل السماء ..تبكي معنا وتنزل ماء يروي عطشنا

كما اعترفت بصحة كلامي وبأنه من الرب آت فاعلموا أنني عزمت النية على أمر هدايني له " الرب وسيظل هذا الأمر حكاية في بني إسرائيل جيلا بعد جيل... سيروا معي هذه الليلة إلى أسوار المدينة سأمضي أنا ووصيفتي.. لا تسألوا ما الأمر الذي اعترمت ولا تبحثوا فيه فقط "صلوا من أجلي ومن أجل أن يتفقد الرب شعبه

"ليكن الرب معك وليجعلك أداة انتقام تحيي مجده "

كانت ساعة تقديم بخور بمعبد أورشليم حين خرت " يهوديت " بمعبدها وقد لبست مسوحها وحثت الرماد على رأسها وهي تصرخ: " أيها الرب إله آباي، يا من عاقب قوما بسبب تدنيسهم عذراء.. أيها الرب يا من جعل نساء العدو غنيمة وبناتهم سبايا لأولئك الذين غاروا على حرماته ودافعوا عنها.. أتوسل إليك أيها الرب أنا الأرملة أن تعينني.. إن الماضي من صنعك وكذلك الحاضر والمستقبل، فما صار إنما هو بأمرك وما يصير بتخطيط ولا سيصير فهو بمشيئتك.. ما أردته كان فكل طرقك مهياة وأحكامك عادلة... إن الآشوريين اعتدوا بقوتهم وأعدادهم الهائلة... لقد عولوا على الرمح والسيف... وضعوا أملهم في الدرع والرمح والتروس لم يعلموا أنك أنت الرب كاسر شوكة المحاربيين... انظر إلى تكبرهم وأنزل غضبك عليهم كما أنزلته على المصريين الذين اعتدوا بمراكبهم ولحقوا بآبائنا فأخرست أصواتهم وأطبقت البحر عليهم... بارك يد الأرملة حتى تحقق ما في نفسها... انفخ في صورتي لأوقعه في الفخ... اجعل عذوبة لساني تفرق بين الرئيس ومرؤوسيه بين العبد وسيده بين القائد وجنوده... اجعل يا رب إسرائيل هلاكه على يدي امرأة.. لأن القوة ليست في العدة ولا العتاد بل القوة فيك يا رب



المتواضعين وإله الضعفاء... ارفع ذراعك يا إله إسرائيل وأنزل غضبك على من يريدون تدنيس بيت الرب واستعباد شعبه... يا خالق السماوات والأرض والماء اسمع صلاتي أنا الذليلة الخاضعة إليك.. اذكر ميثاقك وعهدك مع بني إسرائيل واجعل الشعوب تعلم أنك أنت الأول ..والآخر

فرغت الأرملة من صلاتها فقامت ونادت وصيفتها... نزلتا لغرفتها، المتشحة بالحزن كصاحبتهما، أزلت عنها مسحها وثوب حزنها... غطست جسدها في الماء واستحمت كأنها عروس ستزف لعريسها أو قربان يستعد أن يضحي بنفسه لإله.. كعروس النيل وهي تتطيب بالعطور لتغرق، تطيبت يهوديت بزيت عطرة وارتدت ملابس فرحها، التي تركت بعد وفاة بعلمها، كما انتعلت حذاء وتزينت بخلاخل وأسوار، أقراط وخواتم.. زينت رأسها بتاج بعد أن فرقت شعرها ثم ارتدت حزامها.. نزلت السكنينة عليها فزادتها بهاء.. حملت الوصيصة مؤونة من الزاد القليل والمسموح لبنت إسرائيل بأكله ثم مضتا نحو باب المدينة... كان شيوخ المدينة في انتظارهما.. بهتوا لما رأوا الأرملة وقد أزلت ملابس حزنها.. كان جمالها مغريا ورهيبا.. به مسحة من النور الإلهي... جمال امرأة تحمل مصير شعب على كتفها... باركوها ودعوا من أجلها ثم أمروا الحراس أن يفتحوا للمرأتين الباب وهم يرددون: "نصلي لإله آبائنا بأن يمنحك "نعمة ويؤيد رأيك بقوته لتكوني فخر أورشليم ويكون اسمك مع الأمهات القديسات. آمين

تتبعها الحراس بنظراتهم وهي تنزل من المدينة المحصنة نحو الوادي.. شيعوها بنظراتهم ودعواتهم إلى ان اختفت في الظلام الذي آذن بالانتهاء وانبلج الصبح مع وصلوها لمعسكر الآشوريين فبدت كإلهة نزلت من السماء تتبعها كاهنتها المقوسة الظهر...

" من أي البلاد أنت ولأين أنت ذاهبة؟ من تكونين أيتها الغريبة؟

.سأل حراس المعسكر وقد شدتهم بجمالها ورقتها

إني عبرانية من بنات إسرائيل لكنني فررت منهم بعد أن تبين لي ضعفهم وتأكدت من " انهزامهم.. أريد لقاء القائد اليفانا لأخبره بأسرار المدينة المحصنة ومن أي الفجاج يسلك حتى يباغتهم ويظفر بهم دون أن يهدر دم رجل واحد من رجاله... جئت فارة من شعبي لأحظى ..بالأمان عندكم

حسنا فعلت.. لا تخشي شيئا وما عليك إلا أن تعيدي هذا الكلام أمام القائد اليفانا فهو "سيحسن إليك... سنبعث معنا رجالا ليوصلوك إلى خيمة القائد



مضت الأرملة ووصيفتها بالمعسكر محاطتان بالغفر وقد سبقت كلماتها خطواتها في المعسكر فالتهم حولها العساكر وكلهم مندهشون بجمالها متهامسين وصارخين " لأجل هذا الجمال نحارب العبرانيين لنظفر ببناتهم"... وقفت يهوديت أمام الخيمة المنسوجة من الحرير والقطيفة والمزينة بالجواهر والأحجار الكريمة حيث القائد يرتاح.. لما سمع بقدمها قام من مكانه وخرج لملاقاتها.. على عتبة الخيمة الحمراء حيث المشاعل الفضية التي لم ينقطع دخانها بعد وقف بقامته الطويلة كأنه نحت يجسد أحد الآلهة... أحاط به مستشاروه ولم رآته يهوديت انحنت وسجدت فوق الأرض قبل أن ينهضها العبيد بأمر سيدهم

لا تخشي شيئا يا امرأة.. لتطب نفسك.. تشجعي وأفصحي بما لديك فأنا لم أضرق بشخص " بصف ملك الآشوريين.. لولا أن شعبك احتقره وقرر العصيان وشق ثوب الطاعة لما كنت بهذه الشدة والقسوة.. الآن تحديني وأخبريني ما سبب فرارك من شعبك.. قيل لي أنك تبغين النجدة وأنتي لإنقاذ نفسك.. قري عينا فأنت هنا بأمان هذه الليلة والليالي التي تليها

كان يكلمها برقة ولطف ما تظنهما صادرتان عن قائد عنيف مثله إلا أن اليهودية وقعت في قلبه وأسرها جماله. " اسمع إذن أقوال أمتك،

فإذا اتبعت أقولها يتم لك النصر... مبارك ملك الآشوريين، ملك الأرض كلها.. لتحي قوته المتجلية فيك لأنه بعثك لتؤدب كل الأحياء.. ليسوا فقط البشر من يخدموه بفضلك بل حتى حيوانات الفلاة انصاعت له بأمرك وبذكائك وحسن تدبيرك المشهور بكل الأقاليم.. سمعنا عنك وعن بطولتك أيها المحارب... وصلنا ما باستطاعتك عمله في الحروب.. إن الشيخ الذي تركته بالوادي حكى لنا ما أخبرك.. دعني أخبرك أن كلامه كلام صواب وحقيقة.. إن شعبي لم يهزمه سيف ولا رمح إلا إذا كان مسلطا بغضب الإله إلهنا.. وما رعب الإسرائيليين منك إلا لعلمه بأنه جلبوا لعنة الإله عليهم وحل غضبهم فوق رؤوسهم... لقد استولى بهم العطش حتى قرروا ذبح أنعامهم ليشربوا دمها.. إنهم استحلوا قرابين الهيكل وقرروا استهلاكها.. قرابين لا يحل لهم حتى لمسها باليد.. لقد لعن شعبي من جديد ولا ينتظرون إلا اليوم الذي سيسلمك الرب مفاتيح مدينتهم وها أنا اليوم والآن أهبك هاته المفاتيح بعد أن علمت بما حصل وفررت لأسلط عذاب الرب عليهم على يديك... ها أنا ذا أمتك أيها القائد. أمتك المؤمنة برب إسرائيل والتي تصلي له صباح مساء أطلب أن أبقى بجوارك هذه الأيام على أن تسمح لي بالخروج لسفح الجبل حتى أصلي وأناجي الرب الذي سيبعث لي بإشارة ويخبرني



بموعد حلول العذاب على شعبه.. حينها فقط يمكنك أن تمضي بجيشك ولن يمسخ واحد منهم... حينها فقط ستظفر بهم... عندها سأمضي بمركبتك إلى وسط أورشللم.. ستسوق شعب الرب كالغنم بلا راع.. ستسوقهم دون أن تسمع نباح كلب واحد.. ستسوقهم وكأنك "تملكهم... كل هذا رأيت وأخبرني به الرب لذلك فقد أتيت لأحقق مشيئته

أنى تكون امرأة بهذا الجمال والحكمة والفصاحة." تعجب المستشارون والقواد أما القائد " اليفانا فابتسم إعجابا وفخرا ثم وعدها: "إلهك فعل حسنا بإرسالك إلينا لتكون القوة بيدنا والهلاك لمن عصوا ملك الآشوريين... أما أنت أيتها العبرانية الجميلة فإن أتممت ما قلته الآن وتحقق، إلهك سيصير إلهي وستعيشين كل عمرك في رفاهية وترف بقصر ملك الآشوريين العظيم

أمر القائد بأن تستقر يهوديت بغرفة خزائنه وأن يحضر لها ما لذ وطاب من أكل وخمير، فاعترضت بأدب وعللت رفضها: " أشكر حسن صنيعك يا سليل الكرم والجود إلا أني أمتنع عما لم يكن مسموحا بأكله في ديني حتى لا أخطئ ولا يصغي الرب لصلواتي.. لقد تزودت بما يكفيني وما هو مسموح به في شريعتي

وماذا نحن فاعلون إن انقضى زادك؟ أنى لنا البحث عما هو مسموح به في دينك ولا يوجد " بجيشنا واحد من العبرانيين؟" "قر عينا أيها القائد فإن أمتك لن تنهي زادها إلا وقد تحقق ما جئت من أجله... ما اطلبه هو أن تسمح لي بالخروج للصلاة "في جوف الليل لأتضرع وأنجي الرب إلهي

سمح لها القائد بالخروج للصلاة فكانت طيلة ثلاث ليال تخرج للنبع تغتسل وتتخذ من سفح الجبل مكانا للصلاة والتضرع.. صلت مطولا لأن يرشدها الرب إلى طريق حتى تخلص شعبها.. مضت أيامها الثلاث بين الصلاة والتضرع وبين المكوث طاهرة في الخيمة لا تأكل من زادها إلا القليل كل مساء إلى أن حلت الليلة الرابعة... ليلة باركتها السماء فجعلتها دافئة تشرح النفس وتجعلها ميالة للسور.. قرر فيها القائد إقامة حفل للمقربين من خدمه، لم يحضره أحد سوى أقرب المقربين له.. طربت أنفسهم بالعزف وامتلات بطونهم بالأكل كما دندنت كؤوس الخمر في عقولهم... زال كل تكليف وتعرت النفس المخبأة تحت أردية الحرب... أمر القائد مخصيا من أمناء خيمته بأن يحضر العبرانية: "اذهب إذن واقنع ابنة العبرانيين بأن تأتي لمجلسنا، إنه لعيب وعار عند كل آشوري أن تكون أمامه امرأة بهذا الجمال ولا يظفر منها بشيء، إنها حتى "لتسخر منه وتشكك في رجولته.. اذهب وأحضرها



مضى العبد بخفة إلى حيث الأرملة المتعبدة. " أيتها الآمة الصالحة، أيتها الجميلة لا تستحي وتعالى انضمي لمائدة سيدي القائد حتى تشاركيه كأس خمر وتطربي بمائدة السرور حتى تكون لك مكانة بين بنات آشور

ومن أنا حتى أخالف رغبة سيدي. كل ما يريه مولاي فإني ساعية لتحقيقه.. كل ما يحبه " مولاي فإني سروري يكون بتحقيقه."

قامت يهوديت ووضعت كل زينتها عليها ثم ارتدت ملابس سرورها وخرجت لملاقة القائد بخيمته بعد أن سبقتها وصيفتها.. كالملاك دخلت بل وكعشتار تجلت.. أيقظت الشهوة الخامدة كنار تحت رماد في قلب اليافا.. راودته رغبة عارمة بمطارحتها الغرام.. مذ أن رآها والفكرة تلح عليه إلا أنها الآن اتقدت ولم يعد يستطيع كبحها

اشربي وشاركيها الفرح."

" أشرب عن طيب خاطر وتفرح نفسي لأني في

هذه المكانة العظيمة... عظمت نفسي أكثر من أي يوم في جميع حياتي" أخذت مما حضرته وصيفتها التي سبقتها، أكلت وشريت في حضرته فانشرحت نفسه وطربت بهذا التقدم فزاد في شربه للخمر وتدفقت الكؤوس متتالية.. شرب كما لم يشرب طيلة حياته.

ليّل الليل واشتد ظلامه فبدا للمقربين أنها الساعة المناسبة للانسحاب حتى يتركوا قائدهم ينعم بالأنس مع ضيفته.. مضوا كلهم وبقي الخصي حتى تأكد من رحيل الجميل فأغلق الخيمة وأرسل حراسها حتى يتمتع سيده بالحرية المطلقة ويغزو العبرانية قبل أن يغزوا أرضها.. بقيت يهوديت وحدها بالمخدع.. أرسلت وصيفتها أن تبقى بمكانها وتترقب، أما هي فتقدمت نحو السرير البيضاء ملاءته والحمراء أرديته.. كان القائد منهكا بالخمر فاتفق فوق سريره وسرحت عيناه غائبتان عن الوعي...واقفة أمام السرير بدموع تسيل أنهارا وقلب يهتز كأنما حل به زلزال، صلت يهوديت لإلهها: "أيها الرب أيديني في هذه الساعة وأعطي يداي القوة لتقوم أورشليم ويرتفع ذكرك بها... أدر بنظرك ناحيتي وشد عضدي لأنها ساعة الانتقام من العدو يا إلهي "

تلت صلاتها أمام السرير ثم دنت من أحد أعمدته واستلت سيقا معلقا عليه... أمسكت شعر رأسها.. ربما شعر بها وظن أنها تداعبه فارتخى سائر جسده واستعد لليلة من المتعة.. جرت شعره لكنه لم يحس.. همست "أيدي يا رب إسرائيل في هذه الساعة وانظر عملي..". ضربت



عنقه مرتين... توقف قرع الطبول في قلبها... سمع الرب نداءها فمد يدها بقوة مئة رجل... لم تجزع ولم تخش شيئا.. أحست بالسيف وهو يخترق طبقات الجلد ليحز الحنجرة وتنفجر الدماء ملوثة كل البياض أسفلها.. للحظة فتح عينيه واستيقظ.. تمللم وضرب بقدميه.. ضربات الأضحية المقدمة أمام مذبح الرب.. ضربات النهاية والاستسلام.. لم يدر ما حل به.. حزت رأسه عن جسده... أمام المخدع كانت الوصيفة واقفة مستعدة لتلقي الرأس وجمعها كمن تجمع أواني الأكل... في نظراتها مزيج من المتعة والحقد.. مزيج من الهيبة والخوف... رأيت الموت مرات عديدة لكنها لم تره أبدا بهذه الحمرة القانية وهذه النهاية المرعبة

خرجت الاثنتان من الخيمة، كعادتهما وقت الصلاة، بعد أن حملتا الرأس ومعها رداء السرير الأحمر ومضتا نحو السفح ثم منه إلى الوادي الذي دارتا حوله لتصلا أبواب المدينة وهما تصرخان: "افتحوا، افتحوا إن الرب معنا وقد أجرى قوته في بني إسرائيل... نجاهم وأنقذهم". كما يفعل دائما

فُتحت الأبواب وجاء شيوخ المدينة كما التم أهلها الذي فقدوا الأمل في أن تعود الأرملة الورعة منتصرة.. كثر اللغط من حولها فصعدت مكانا مرتفعا وانتظرت حلول الصمت لتخرج الرأس من الثوب... جفت الدماء حول الجيد لكن القطرات بقيت متألثة حول قسبة الحنجرة... ابيضت سحنته إلا أن الخوف لم يختف من ملامحها... على ضوء المصابيح بدا اصفراره أوضح وما كان أحد ليصدق أن هذا هو القائد الهمام الذي خضعت له كل الأقاليم... صرخ الشيخ الذي كان أهل المدينة يستضيفونه وخر مغشيا عليه بعد أن تملكه الرعب والوجل..

...حينها تأكد الجميع إنما الرأس هي رأس اليفانا بعينه

إنما أراد الرب أن يكون هلاك القوي على يدي امرأة... سبحوا الرب بالدفوف ورنموا للرب " على الصنوج.. عظموه أبد الدهر فالجبال تهتز من عظمته والصخور تذوب كشموع أمام وجهه.. هللوا للرب ومجدوه.. من يتقوه ويقدموا القرابين باسمه فهم أعز مخلوقاته والويل " لمن كفر به فالنار والدود مصيره... سبحوا للرب المبارك

رددت الجالسة على المكتب النشيد وسمعت صوت الدفوف كما استنشقت روائح البخور والقرابين المحروقة باسم الرب... عادت من شرودها ورحلتها الطويلة بين ثنايا ذاكرتها العتيقة... قامت بعدها نحو الصوان حيث المرأة.. تطلعت فيها كأنما تتأكد أنها موجودة بهذا الزمان والمكان.. ابتسمت بحزن وفرح في نفس الوقت.. ابتسامة اشتياق للماضي.. ابتسامة تخلص من الماضي



